عالم المغامرات

(٦)

مهمة فى الأعماق

تأليف

أشرف السيد العقبى

رسوم

مجدى بكر

جميع حقوق الطبع والنشر
محفوظة لشركة سفير

رقم الإيداع ٢١٠٩ / ١٩٩٤
الترقيم الدولي: ISBN : 977 - 261 - 3014 - X

مقدمة

كانت وما زالت التسلية الهادفة هى ضالة كل قارئ وناشر ومؤلف جاد، وكذلك كل الجهات الأمينة التى تعمل فى مجال ثقافة الناشئين والشباب، وقد زادت الحاجة إلى الأعمال الساعية إلى تحقيق هذا الهدف الآن أكثر من أى وقت مضى، خاصة وقد بدأت القراءة تحتل مكان الصدارة من جديد فى اهتمامات أبنائنا.

وقد وجدنا أنه لسد الفراغ الموجود فى هذه النوعية التى تهدف إلى الارتقاء بذوق أبنائنا ولغتهم وتنمية ثقافتهم وقيمهم بأسلوب يحترم عقولهم وتفكيرهم ويسمو بخيالهم؛ رأينا أن نقدم هذه السلسلة التى تتسم أحداثها بالمتعة والإثارة فى شكل قصصى جذاب.

فبالرغم من أن جميع الأحداث من نسج الخيال فإن أماكن وقوعها حقيقية، وكذلك ما ورد فيها من معلومات.

وقد راعينا فى هذه السلسلة أن تحمل كل قصة من القصص المقدمة – فى طياتها– قضية أو عدّة قضايا تهم القارئ وتمس حياته بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، فيشعر أن هناك من يقف بجانبه ويشاركه التفكير فيما يهمه بعيداً عن أسلوب الوعظ المباشر.

وقد راعينا أيضًا فى هذه السلسلة خروج القصة فى قطع صغير يسهل على القارئ اصطحابها معه فى أى مكان، وكذلك جودة الطباعة وجمال الرسومات المعبرة.

١ - الحلم الضائع

كان ينبعث من المحيط ضباب كثيف يعتم الرؤيا ويلف كل شىء حوله بمعطف يكاد يكون خانقًا، هكذا كان الجو فى الصباح الباكر لذلك اليوم على الشاطئ؛ حيث كان «صفوان» يجلس مهمومًا حزينًا.

وإذا كنَّا نريد تحرِّى الدقة فإنه يمكننا أن نقول إن ذلك الشعور الخانق كان إحساس «صفوان» بعد إصابته بالإحباط الشديد؛ نتيجة فشله فى التقدم خطوة واحدة إلى الأمام فى مشروعه الذى كان يمثل له حلمًا كاد يكون حقيقة، لولا تلك الأحداث التى مرت به خلال الأيام الماضية.

وفجأة سمع «صفوان» أصواتًا كأنها عراك، مصدره المكان الذى يبيت فيه العمال الذين استأجرهم للعمل لديه.

وحاول أن يرى شيئًا خلال ذلك الضباب، وكانت الرؤيا قد بدأت تتضح، والمأساة توشك أن تكرر.

كان العمال يفرون وهم فى هيئات غريبة، بعضهم حافى القدمين، والبعض الآخر بدون ملابسه العلوية.

هرع إليهم «صفوان» لاستجلاء الأمر، وإن كان فى داخله يعلم مقدمًا أسباب ما يحدث.

وبصعوبة احتجز آخرهم وسأله :

ماذا حدث ؟!

قال الرجل فى فزع :

– لقد سرقوا ملابسنا وأحذيتنا هذه المرة .. وأضاف :

لن نعمل فى مكان تسكنه الأشباح.

وفر الرجل خلف زملائه، ووقف «صفوان» فى وسط قطعة الأرض التى طالما تمنى أن تصبح مشروعًا صغيرًا ناجحًا ينقله إلى مصاف رجال الأعمال.

جلس «صفوان» يحدث نفسه :

– ترى هل يمكن تصديق هذا الذى يحدث ؟ هل من الممكن أن تكون هذه هى «لعنة المقابر» التى حدثنى عنها «جابر»، والتى تصيب كل من أقدم على اقتحام حُرمة الأموات وفتْح مقابرهم ؟

لقد سمعتُ عن تلك اللعنة التى أصابت مكتشفى مقابر قدماء المصريين، وكيف أنهم ماتوا جميعًا فى ظروف غامضة، أو احترقت منازلهم أو سياراتهم، أو مات أقرب الناس إليهم.

ولكن «صفوان» ما لبث أن عاد إلى رشده وتذكَّر ما قرأه، فقال :

– ولكن العلم الحديث أكد أن تلك اللعنة ما هى إلا أكذوبة

كبرى، فما حدث من وفاة لفاتحى قبور قدماء المصريين لم يكن إلا نتيجة السموم التى كانت فى جو المقبرة، والتى تدخل صدر كل من يفتحها فيصاب بخلل فى نمو خلاياه، أو يصاب فى جهازه العصبى، أو يصاب بالإشعاع الذرى المكثَّف الموجود داخل المقبرة.

أما احتراق منازلهم أو سياراتهم أو موت أقرب الناس إليهم، فكل ذلك لم يكن يحدث إلا بقدر الله عز وجل.

قال «صفوان» فى نفسه عندما تذكر هذه الحقائق :

– أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. إن مروّجى تلك الأفكار إنما يفعلون ذلك لأغراض فى أنفسهم، وليحيطوا اكتشافاتهم بالغموض، ويملئوا حياتهم بالإثارة.

ولكن تلك المقبرة التى اكتشفها العمال أسفل الهضبة كانت خالية، كما أن اكتشافها كان نتيجة سقوط الصخرة الكبيرة على سطحها فتحطَّم، ودفع حب الاستطلاع الرجال إلى دخولها وتفقد ما فيها؛ فلم يجدوا شيئًا يُذكر.

ولقد أخبرنى صديقى البحار الخبير «خير الدين» أن هذه المنطقة كانت ميناءً منذ مئات السنين، وكان هذا المكان يستقبل أحيانًا لصوص البحر (القراصنة)، وما زال الناس يظنون أنه فى مثل هذه الأماكن توجد كنوز مدفونة بمعرفة هؤلاء اللصوص؛ لذلك اقتحمها الرجال ظانين أنهم عثروا على شىء ذى قيمة.

كانت كل تلك الأفكار قد مرت بذهن «صفوان» وكأنها شريط سينمائى سريع، وكان «صفوان» ينتظر بفارغ الصبر ظهور الصباح لتنفيذ ما عزم عليه، ولكن الوقت كان يمر عليه بطيئًا كئيبًا، أو هكذا هُيِّئ له.

وفى الصباح نادى «صفوان» على مساعده «جابر»، وكان «جابر» هو الشخص الوحيد الذى بقى مع «صفوان» لمساعدته بعد فرار كل رجاله من حوله فزعين من تلك اللعنة التى أصابت هذا المكان.

قال «صفوان» لمساعده «جابر»:

– سأذهب إلى المدينة لبضع ساعات، ثم أعود بإذن الله، فلا تترك الموقع لأى سبب.

– بالتأكيد يا سيد «صفوان» اذهب فى أمان الله.

استقل «صفوان» سيارته متجهًا إلى «مكتب البريد الدولى»، وهو شارد الذهن، وكان يحدث نفسه قائلا:

– لا شك أننى سأجد عنده حلا..، ولكن يا ترى هل ما سأفعله خطأ أم صواب؟ أليست مشقة عليه أن يأتى من بلاده إلى هنا؟ ولكنه صديقى الحميم وقد تعاهدنا على أن يساعد بعضنا بعضًا خاصة فى أوقات الأزمات، .. ويا لها من مشكلة تلك التى أعانى منها.

كان «صفوان» يقصد بحديثه هذا صديقه الوفى «شريف

فهمى »، فقد رأى أن يرسل إليه، يستدعيه لمساعدته فى حل مشكلته تلك، وعند الظهر عاد « صفوان » إلى الموقع، ونادى على « جابر » فلم يجده.. وبعد قليل من البحث عثر عليه فى أسفل الهضبة خارجًا من المقبرة الخالية.

قال له « صفوان » :

– ماذا تفعل يا « جابر » ؟

قال « جابر » :

– لقد اكتشفت شيئًا يا سيدى، تعالَ لحظة.

وبعد تردُّدٍ توجه إليه « صفوان ».

قال « جابر » :

– انظر إلى تلك الكلمات المكتوبة (المنحوتة) على جدران المقبرة الخالية.

حَدَّق « صفوان » فيها، فإذا هى الكلمات نفسها التى قرأها من قبل فى إحدى المجلات، وتحكى قصة الخيانة التى أدت إلى القضاء على أحد زعماء القراصنة، وتوعُّده لمن شارك فيها.

قال « صفوان » :

– وما الجديد فى هذا ؟ تلك هى الكلمات التى عرفنا منها أن

ذلك المكان كان ذات يوم مقبرة، ولم نعثر فيه على شيء، وأعتقد أن ذلك الزعيم قد حُبس حيًّا هنا، وعندما لم يستطع الخروج، وأحس بقرب وفاته كتب ما كتب.

– لا أقصد ذلك يا سيدى... إنما أقصد تلك الأرقام التى كانت تغطيها طبقة من الغبار نتيجة انهيار سقف المقبرة هذه.. وأشار إليها.

نظر «صفوان» بغير اكتراث، وقال :

– إنما هى أرقام لا تدل على شيء... دعنا من ذلك يا «جابر» سوف أهيل التراب غدًا على ذلك المكان لإخفاء معالمه فهو لا يهمنا فى شيء.

وبعد أسبوع كان «صفوان» ينتظر فى المطار، وهو مضطرب الأعصاب، ينظر فى ساعته كل لحظة ويفرك يديه، ويقطع صالة الاستقبال جيئة وذهابًا.

وفى تلك اللحظات اقتربت طائرة من أرض المهبط، وأنزلت عجلاتها، ولامست الأرض بعد أن ارتدت عدة مرات، ثم أخذت تهدئ من سرعتها شيئًا فشيئًا حتى توقَّفت تمامًا، بينما صوت محركها يصدر صوتًا عاليًا يتخلله صفير حادّ، وصدر من الإذاعة الداخلية صوت موسيقى قصير، أعقبه إعلان : «الرحلة ٦٠٦ القادمة من القاهرة وصلت بسلامة الله».

تهلل وجه «صفوان» فرحًا، واتجه ببصره صوب باب دخول

القادمين يتفحصهم واحدًا واحدًا، حتى وقع بصره على صديقه؛ فنادى عليه بصوت لفت انتباه كل الحاضرين :

– « شريف » .. « شريف »

وأشار « شريف » إليه مجيبًا، وبعد إنهاء الإجراءات اتجه « شريف » خارجًا؛ فاستقبله « صفوان » محتضنًا إياه وهو يقول :

– مرحبًا بك يا صديقى .. مرحبًا بك.

وفى السيارة قال له « صفوان » معتذرًا :

– إننى جد آسف على إحضارك يا « شريف »، ولكن الأمر خطير! إننى فى مأزق يا صديقى ! أشكر لك حضورك وتلبيتك ندائى.

قال « شريف » وقد علت وجهه ابتسامة هادئة :

– لا عليك يا « صفوان » .. بل أنت الذى تستحق الشكر أن أتحت لى الفرصة لمساعدتك فهكذا أمرنا ديننا الحنيف.

وأضاف « شريف » وهو ينقل بصره بين مجموعة رائعة من المناظر الخلابة التى تجذب الأنظار إليها :

– كما أشكرك أن دعوتنى لمشاهدة هذه البلاد الجميلة التى يقصدها الناس للتمتع بطبيعتها الساحرة.

وأثناء الطريق قال « شريف » لصفوان :

– والآن يا صديقى، وبدون انفعال قصّ علىّ ما حدث، فلا تُوجد

مشكلة فى هذا العالم بلا حل.. وسنحل مشكلتنا بإذن الله.

قال «صفوان» :

– تعلم يا «شريف» أننى عزمت على إقامة مشروع صغير، عبارة عن مطعم يتناول فيه الزوار وجبات البحر الطازجة.

– نعم أعلم ذلك، فقد كان هذا حلمك منذ فترة طويلة.

– وقد لاحت لى الفرصة بعد أن عرض علىَّ شخص إعطائى قطعة أرض على الساحل مقابل مبلغ كان مديناً لى به.

– هذا عظيم جدًّا يا «صفوان» .. والآن أين المشكلة؟

– لقد بدأت المشاكل عندما توجهت إلى قطعة الأرض تلك، فوجدتها تحتاج إلى تمهيد.

– هذا شىء طبيعى يا «صفوان».

– أجل، كل ما سبق كان يجرى فى إطار المعقول، أما ما حدث بعد ذلك فكان غير معقول أبدًا.

– كيف ؟!

– حدثت أشياء غريبة عندما كان العمال يعملون.

– ماذا حدث ؟

– كانت ملابسهم تختفى كل يوم بل وطعامهم، بصورة غامضة.

– ماذا ؟!

– وكانت تقوم بينهم مشاجرات دائمة، بعضهم يدَّعى أن الآخر سرقه أو ضربه على حين غفلة، إلى آخره .. حتى تركوا المكان ورحلوا دون إتمام العمل.

– ربما كان أحدهم يريد إفساد مشروعك يا «صفوان».

– لقد ظننتُ ذلك فى أول الأمر .. ولكن !

– أكمل يا «صفوان» ماذا حدث ؟

– كنتُ قد أقمتُ مكانًا صغيرًا أبيت فيه وسط الأرض، وكنت فى كل يوم أرى وأسمع أشياء غريبة.

– لا عليك يا «صفوان» سأذهب معك إلى هناك، ونرى ما يجب فعله.

– إن مشروعى يوشك أن يموت قبل أن يولد؛ لقد أشاعوا عن المنطقة إشاعات وقصصًا سوف تؤدِّى إلى صرف الناس عن هذا المكان، بل وخوفوهم حتى من مجرد الاقتراب منه.

قال «شريف» :

– ولكن من تظن أن له مصلحة فى إفساد مشروعك ؟

– لا أحد، ولكن هناك من يعتقد أن تلك الأمور ما هى إلا أفعال...

– أفعال مَن يا «صفوان»؟

– أفعال أشباح.

ضحك «شريف»، وقال:

– هوِّن عليك يا «صفوان»، إن ما حدث لن يتعدى مؤامرة، يحاول بها البعض إخافتك حتى تترك المشروع، وسوف نكشفها بإذن الله.

– إننى لا أخاف من الأشباح يا «شريف» بقدر خوفى من تلك الإشاعات التى ستدمر المشروع.

– اهدأ يا «صفوان»، سيجعل الله بعد عُسر يُسرًا بإذن الله.

وبعد حوالى ساعة، وصل الصديقان إلى موقع المشروع، وكان «جابر» فى استقبالهم.

قال «صفوان»:

– هذا مساعدى «جابر»، وهو الوحيد الذى رفض مغادرة المكان، وفضَّل البقاء بجوارى.

قال «شريف»:

– مرحبًا يا «جابر».

نظر « شريف » حوله، فوجد المكان خاليًا موحشًا إلا من بلدوزر هناك فى طرف الهضبة التى كانت تطل على البحر، وكان المشهد رغم تلك الوحشة بديعًا وجميلا؛ خاصة أن المكان كان يرتفع عن سطح البحر بمسافة لا تقل عن عشرة أمتار.

قال « شريف » :

– إنه مكان رائع يا « صفوان » !

– أجل يا صديقى، وهذا ما جعلنى أتشبث به رغم كل ما حدث.

قال « شريف » :

– انظر إلى أسفل، إن مشهد الأمواج وهى ترتطم بأسفل الهضبة جميل.

– إنهم يقولون إن هذا المكان كان « مرفأ » (ميناء) منذ فترة طويلة، فالماء هنا عميق، وعندما يصفو البحر، يمكنك أن ترى مشهدًا جميلا للأسماك الملونة، وهى تسبح آمنة وسط الشعاب المرجانية.

وأثناء تناول الغداء ، قال « شريف » :

– بالمناسبة يا « صفوان »، هل هذا البلدوزر يعمل بحالة جيدة؟

– نعم، ولماذا هذا السؤال يا « شريف » ؟

– لأننى سوف أقوم بنفسى بإكمال عملية تمهيد الأرض؛ فأنت تعلم خبرتى فى هذا الأمر بحكم عملى فى استصلاح الأراضى.

– شكرًا لك يا « شريف ».

قال « جابر » :

– إذن علينا أن نبدأ بعملية إهالة التراب على المقبرة يا سيد « شريف ».

تعجب « شريف » وقال :

– أية مقبرة تقصد ؟

قال « جابر » :

– الموجودة هناك أسفل الهضبة.

نظر « شريف » إلى « صفوان »، وقال :

– إنك لم تذكر لى أى شىء عن تلك المقبرة يا « صفوان ».

– ظننتُ أن هذا الأمر لن يهمنا فى شىء.

قال « جابر » :

– إن اكتشافها جاء مفاجأة لنا، عندما سقطت صخرة كبيرة من أعلى الهضبة عليها، فحطمت سقفها، وكانت خالية تمامًا.

قال « شريف » :

– هيا لنراها .

توجه الثلاثة إلى حيث المقبرة . قال « شريف » متعجبًا :

– لابد أن يكون هناك مدخل لهذا المكان، أين هو يا تُرى ؟!

قال « جابر » :

– كما أن هناك بضع كلمات منحوتة على الصخر، انظر يا سيدى .

قرأ « شريف » :

الجبناء الأوغاد حبسونى هنا للتخلص منى

لو استطعت الخروج لهم

كنت سأحطمهم وسوف

نرى من هو ملك البحار « وودز – روجرز » أم أنا

« وليم كيد »

||||||| /||| /||| /|| /|| /|||| /||| /||||

قال « شريف » :

– رسالة غريبة حقًّا . كتبها أحد القراصنة عندما أدرك أنه هالك

لا محالة بعد أن حبسه أعداؤه حيًّا فى ذلك المكان، الذى صار مقبرة له، ومع ذلك فهو يتوعدهم !!

نظر « شريف » إلى « صفوان »، وقال :

– تقول إن العمال لم يعثروا على موتى هنا.

– لا.

– حسنًا، هيا بنا، ولكن أعطنى أولا ورقة وقلمًا.

قام « شريف » بنقل الرسالة كما هى فى ورقته، ثم دخل الصديقان سويًّا إلى حجرة « صفوان » للراحة.

قال « شريف » :

– أريد أن أخبرك بشىء يا « صفوان ».

– وما هو يا « شريف » ؟

– أولا يجب أن تحتفظ بهدوء أعصابك، فإن أمامنا عملا كثيرًا.

قال « صفوان » :

– لن أهدأ قبل أن أحطم هؤلاء الذين يريدون إفساد مشروعى، سوف أُقطِّعهم إربًا، إن وجودك معى يا « شريف » أعطانى دفعة قوية، وتصميمًا على مواصلة العمل، بل والقتال من أجله.

قال « شريف » :

– لا يا « صفوان »، إنما العاقل هو الذى يبلغ غايته بالذكاء لا بالقوة، بالعقل لا بالعضلات، وسوف نتعاون سويًّا حتى نصل إلى حل تلك المشكلة بإذن الله، ولكن بعد التأكد من شىء واحد.

– وما هو هذا الذى تريد التأكد منه يا « شريف »؟

– أعطنى أولا هذا اللوح الخشبى، وذلك الحبل.

– وماذا ستفعل بهما ؟

– سترى.

قام « شريف » بربط طرفى الحبل فى نهاية اللوح الخشبى، وأخذ يجره خلفه فكان اللوح يسوى سطح الأرض ويجعلها ناعمة، ويمحو أى أثر عليها ويتركها بلا نتوءات، واستثنى من ذلك شريطًا من الأرض يصل بين مدخل الأرض والحجرة التى ينام فيها « صفوان »، وكذلك حجرة « جابر ».

كان « صفوان » يراقبه ولا يتكلم، وعندما انتهى قال له :

– ولماذا لم تسو ذلك الشريط من الأرض الواصل بين مدخلها ومكان إقامتنا ؟!

– تركته لندخل ونخرج منه، أما باقى المساحة الممهدة فيجب ألا نقربها حتى الصباح، وسوف أبيت معك فى حجرتك الليلة يا « صفوان ».

وأثناء الليل وبينما الصديقان نائمان، سمع « شريف » جلبة بالخارج فلم يرد إزعاج « صفوان » وتركه نائمًا، وقام وهو يقول فى نفسه :

– غدًا سيتضح كل شىء.

وزادت الجلبة وكأن أناسًا يتحدثون، وخيل لشريف أنه يسمع صوت سيوف تتقاتل، أو قِطَعٍ معدنية تتلاطم بعضها مع البعض الآخر، وبين الحين والحين تصدر قهقهة عالية وأنين.

فرك « شريف » عينيه، وقرر الخروج ليرى بنفسه ما يحدث، وتسلل إلى الخارج، ونظر فى الظلام فلم ير شيئًا.

عاد « شريف » فوجد « صفوان » مستيقظًا.

قال له « صفوان » :

– هل وجدتَ شيئًا ؟

– لا، لم أستطع رؤية أى شىء؛ فالظلام دامس.

قال « صفوان » :

– عد إلى فراشك يا صديقى ، فهذا يحدث كل يوم.

قال « شريف » :

– ولكنى سأكشف لك سر ما يحدث غدًا بإذن الله.

وفى الصباح الباكر استيقظ « شريف »، وفى الحقيقة أن عينيه لم تر النوم من طول التفكير فيما حدث.

وخرج « شريف »، وظل ينظر إلى سطح الأرض الذى سوَّاه بالأمس، ربما عثر على آثار أقدام تخص هؤلاء الذين كانوا بالخارج طوال الليل، ولكن المفاجأة كانت أنه لم ير أثرًا لأى شىء.

قال « شريف » فى نفسه :

– إذن كانت تلك أصواتًا فقط.

وعندما دخل إلى غرفة « صفوان »، قال له الأخير متندرًا :

– ترى هل ترك الأشباح آثارًا ؟

قال « شريف »، وهو يضع يده على جبهته :

– ما زلنا فى البداية يا صديقى، لا تتعجل النتائج.

وصمت لحظة ثم قال :

– أريدك أن تعاوننى فى شىء يا « صفوان ».

– وما هو يا « شريف » ؟

– سوف نهبط بالبلدوزر إلى المقبرة الخالية.

– وهل لذلك علاقة بما نحن فيه ؟

– أعتقد ذلك يا « صفوان » .

نادى « صفوان » على « جابر » لكى يعاونهما، وهبط الثلاثة إلى أسفل الهضبة .

أشار « شريف » إلى أحد الصخور، وقال لجابر :

– حاول إزالة هذه الصخرة الضخمة بالبلدوزر يا « جابر » .

لمعت عينا « جابر »، وقال :

– هذا مستحيل يا سيدى، فهذه الآلة لن تستطيع تحريك الجبل أمامها !

قال « شريف » :

– أعتقد أنك لن تجد خلفها إلا فراغًا . . فقط حاول تحريكها .

وبدأ « جابر » العمل، وزمجرت الآلة، وبعد عدة محاولات تحركت الصخرة مسافة قليلة ولكنها كافية ليمر منها شخص .

قال « صفوان » :

– عجبًا ! ما هذا التجويف الآخر ؟ كأن الصخرة كانت جدارًا بين غرفتين .

ودخل الثلاثة ذلك المكان .

قال « صفوان » :

– إنها حجرة الدفن.

قال « شريف » :

– لا ... أعتقد أنهم تجمعوا هنا.

ثم صمت وقال :

– بل أعتقد أنهم ماتوا أولا، ثم سقطت تلك الصخرة نتيجة هِزَّة أرضية، فقسمت المكان إلى جُزأَيْنِ.

قال « جابر » وهو مذهول :

– إنها مجموعة من الهياكل العظمية ترتدى ملابسها كاملة، وقد بليت تمامًا ويبدو هذا وكأنه كان كبيرهم، فملابسه تشبه ملابس القراصنة القدامى، وهذان رجلان كأنهما حارسان مسلحان بالغدارات (آلة أكبر من المسدس وأصغر من البندقية) والسيوف، وتلك السيدة كانت متزينة بعقد من اللؤلؤ والكثير من الحلى، وهذا الأخير هيكل عظمى لكلب حول رقبته طوق ذهبى.

قال « شريف » :

– تلك هى الجثث المفقودة، وما زال هناك الكثير من الأسرار خافيًا.

قال « صفوان » :

– ما رأيك أو تصورك لما حدث يا « شريف » ؟

– هذا يؤكد نظريتى لقد سجنوا جميعًا هنا بهدف الانتقام منهم، وعاشوا بضع أيام بدون طعام أو ماء، أما المدخل الذى دخلوا منه فقد سُد بإحكام فى أحد هذه الجدران، ولسنا بحاجة للبحث عن ذلك المخرج الذى سيكون غالبًا يؤدى إلى البحر، فقد دخلنا وسنخرج من حيث أتينا.

قال « جابر » :

– وماذا عن الرسالة ؟

قال « صفوان » :

– أعتقد أنها رسالة عادية، أما تلك الخطوط الموجودة أسفلها فلا شك أنها تمثل عدد الأيام التى قضاها ذلك القرصان ومن معه فى هذا المكان، وكل خط يمثل يومًا، كما كان يفعل السجناء القدامى فى سجنهم الطويل.

قال « شريف » وهو ينظر إلى الرسالة :

– ربما.

وبعد الظهر ، استأذن « جابر » من « صفوان » لشراء بعض احتياجاتهم من المدينة.

قال له « صفوان » :

– ولماذا لم تخبرنى لأحضر لك ما تريد أمس عندما كنت بالمدينة؟

– لم أكن قد قمتُ بحصر ما نريده بعد يا سيدى، وعلى كل حال لن أتغيب، وسوف أعود بعد عدة ساعات.

وظل الأمر كما هو لعدة أيام، ولكن الأمور كانت هادئة.

وبعد عدة أيام كان « صفوان » يتناول قدحًا من الشاى أعده له مساعده « جابر »، أما « شريف » فقد قرر المبيت فى المدينة فى تلك الليلة.

تناول « صفوان » الشاى الساخن وهو شارد... بعدها أحس ببعض الخمول فأطفأ النور، واستسلم للنوم.

وفجأة أحس بأصوات وحركات غريبة، ففتح عينيه وكانت المفاجأة :

لقد انشق الجدار نصفين، وخرج منه ما أدهشه، لقد شاهد شيئًا كأنه شبح.

قال « صفوان » فى نفسه :

– أحلم هذا ؟!

دقَّق « صفوان » النظر، ولم يستطع التحرُّك، ثم سمع صوتًا يقول له :

– كيف تتجرأ علىَّ يا هذا ؟

جمد « صفوان » فى مكانه، وظل يحدق النظر، فرأى شبحًا رماديًّا، يمشى ببطء وعيناه وقَّادتان لامعتان، أما ملابسه فكانت تضيف إلى مظهره شكلا مرعبًا، وكان يضع حول وسطه نطاقًا يحمل عددًا من الغدارات، وعلى رأسه قبعة وله يد واحدة، أما الثانية فكانت مبتورة، وقد وضع مكانها خطافًا، وكانت له لحية سوداء داكنة كثة.

قال « صفوان » :

– من أنت ؟

أولاه الشبح ظهره، وقال وهو يضحك.

– أنا قائد سفينة الكلب الذهبى، وحاكم جزيرة « ترتوجا »، كيف لا تعرفنى يا هذا ؟!

قال « صفوان » :

– تقصد أنك روح قرصان ؟

– ماذا تقصد بروح قرصان ؟! بل أنا القرصان نفسه.

– ولكن لا يوجد قراصنة فى زمننا هذا، إن ما تتحدث عنه يُعتَبر

بمثابة تاريخ – بالنسبة إلينا– مضى منذ مئات السنين.

– هل أنتَ واثق أنه لا يوجد قراصنة فى زمنكم هذا... إذن أنت لا تعرف شيئًا، إنما زاد عددهم، ولكنهم لا يلبسون زيًّا مميزًا مثلنا، لذلك لا يمكنك معرفتهم بمجرد النظر.

قال « صفوان » :

– ربما، ولكنى متأكد من اندثار قراصنة البحار.

قال الشبح فى ضيق، وكأنه لا يريد الاعتراف بكونه قد مات منذ زمن :

– دعك من هذا، والآن ما الذى جاء بك إلى هنا؛ لتزعجنا بالحفر بآلتك المزعجة ؟

– معذرة يا سيدى، لم أكن أعرف أنك هنا.

– الآن وقد عرفتَ، عليكَ بمغادرة هذا المكان فورًا وإلا ألقيتك لأسماك البحر.

حاول « صفوان » أن يقوم، ولكنه لم يستطع ... فتذكر قول « شريف » : « حاول أن تصل إلى هدفك بالعقل والحكمة »، فقال :

– عندى اقتراح لك يا سيدى.

– وما هو ؟

– حيث إننا نزعجك فما رأيك أن نعقد اتفاقًا، أن تتركنا وشأننا على أن نبنى لك مقبرة تليق بمكانتك، وتكون بعيدة عن عبث الأحياء؟

– هذه فكرة لا بأس بها، ولكن يجب أن أحضر كنوزى أولا.

– كنوزك ؟! وماذا ستفعل بها يا سيدى إنك ميت والأموات لاينتفعون بالأموال.

غضب الشبح، وقال :

– وحتى لو كنتُ ميتًا كيف أترك أموالى ؟!

قال «صفوان» فى نفسه :

– إن روح هذا القرصان تبدو وكأنها كانت متعلقة بالدنيا لأقصى درجة، ولا يريد أن يصدق أنه فارقها، هذا التعيس كأن روحه تحترق بفراق ما كانت تشتهيه.

قال له «صفوان» مسايرًا :

– لو أراد سيدى أن أحضر له كنزه ساعدته فى ذلك.

قال الشبح :

– يبدو أنك طيب القلب يا ولدى، إذن هيا بنا نوقع القسم على غداراتى تلك.

كان « صفوان » قد قرأ أن تلك كانت هى عادة القراصنة بأن يعقدوا اتفاقًا قبل الخروج إلى عملية، وأن يوثقوا هذا الاتفاق بأن يضعوا أيديهم على غدارة أو سيف، وأن يشمل هذا الاتفاق تقسيم الغنائم والتعويض عن فقد الأعضاء البشرية كاليد أو العين أو الإصبع، وكانوا يتعاهدون بألا يخفوا شيئًا من الغنائم عن بعضهم.

قال « صفوان » :

– لا مانع عندى، ولكن أين تخفى كنوزك ؟

– فى مكان أمين، واعلم أن كنوزى الكثيرة هى الوحيدة بين كنوز القراصنة جميعًا التى لم يتمكن أحد من العثور عليها حتى الآن.

قال القرصان :

تذكر تلك الأرقام التى سأذكرها لك.

٧ ٣ ٣ ٢ ٢ ٤ ٣ ٥

وظل شبح القرصان يرددها، وهو يكاد يختفى، تذكر :

٧ ٣ ٣ ٢ ٢ ٤ ٣ ٥

وفى تلك اللحظة أضاءت كشافات إحدى السيارات مدخل الموقع، وهنا وجد « شريف » « جابرًا » يصرخ، ويقول :

– لقد رأيته .. لقد رأيته.

نزل « شريف » مسرعًا من سيارته، وسأل « جابرًا » :

– هل رأيت أحدًا من هؤلاء الذين يحاولون إفساد المشروع؟

– لا يا سيدى، ولكنى رأيت شبح القرصان، وفى يده كلب ذو عيون لامعة.

وتوجه « شريف » إلى حجرة « صفوان »، فوجده يكرر :

– ٥ ٣ ٤ ٢ ٢ ٣ ٣ ٧

أضاء « شريف » نور الغرفة وسأل صديقه :

– ما هذا يا « صفوان »، ماذا تفعل ؟!

لم يستطع « صفوان » أن يقوم من مكانه وإنما قال :

– اكتب هذه الأرقام بسرعة يا « شريف » قبل أن أنساها.

٥ ٣ ٤ ٢ ٢ ٣ ٣ ٧

– ماذا تعنى هذه الأرقام يا « صفوان » ؟

– لا أعرف ولكنه أخبرنى بها.

– من هذا الذى أخبرك بها ؟

– روح القرصان.

تعجب « شريف » ، وقال :

– اهدأ يا « صفوان »، وسوف أعد لك كوبًا من الشاى والجابر مثله، فعندما دخلت الموقع رأيته يهذى هو الآخر، ويقول: إنه رأى شبح القرصان مع كلبه الأسود.

قال « صفوان » :

– لما لم تبت ليلتك بالمدينة ؟

– أنهيت كل أعمالى وقررت العودة، والحمد لله أننى حضرت فى الوقت المناسب.

نظر « صفوان » إلى الجدار، وقال :

– لقد انشق هذا الجدار، وخرج منه القرصان، وأخبرنى أنه هو الذى فعل كل هذا بمشروعى، وأمرنى بمغادرة المكان وقد عقدت معه اتفاقًا.

قال « شريف » :

– وما هو ؟

– أن أحضر له كنزه، وأبنى له مقبرة أخرى غير التى هدمناها، على أن يتركنا وشأننا، وقد ذكر لى تلك الأرقام التى شاهدتنى أكررها.

وفى هذه اللحظة دخل « جابر » وكان يبدو عليه الاضطراب، وقال:

– عفوًا يا سيد « صفوان »، لقد سمعتُ ما قلتَ وأؤكد لك أن تلك كانت روح القرصان حقًّا .

قال « شريف » :

– وما أدراك بهذا يا « جابر » ؟

قال « جابر » :

– لقد عملت فترة فى إحدى جمعيات تحضير الأرواح، وكنت أرى وأسمع الكثير.

قال « صفوان » بشغف :

– مثل ماذا يا « جابر » ؟ أخبرنى.

قال « جابر » :

– كان رئيس تلك الجمعية يقول دائمًا: إن قلق بعض الأرواح وارتباطها بالدنيا بعد فراقها ظاهرة مؤكدة، ومسلك يسلكه بعضها، وكان يدلل على ذلك بقوله: ألم تسمع عن روح دلَّت على قاتلها، أو جاءت لتطمئن على ذويها، أو لطلب الإسعاف من البعض كما حدث اليوم ؟

اتسعت حدقتا «صفوان»، وقال :

– أكمل يا «جابر».

– كما أن هناك أرواحًا شريرة تظهر لإزعاج الناس أو الانتقام من أحدهم.

– ترى أى نوع من الأرواح ذلك الذى شاهدناه أنا وأنت يا «جابر»؟!

– أعتقد أنها من تلك النفوس الشريرة التى كانت متعلقة بالدنيا، وعندما مات صاحبها، وسلب الحواس، وحُرم من المال الذى كان يحبه، أصبحت روحه تتمنى لو رجعت إلى الدنيا، وأصبحت روحًا متجسدة حائرة، لا هى حية ولا ميتة، وتتخلق بالأخلاق نفسها قبل موتها.

قال «صفوان»:

– لقد كانت ليلة مزعجة.. اذهب لتستريح فى غرفتك يا «جابر».

– طابت ليلتك يا سيدى.

كان «شريف» صامتًا طوال تلك الفترة، ولم ينطق بكلمة، وعندما انصرف، قال لصفوان :

– أحقًّا تصدق ما حدث يا «صفوان»؟!

– ولماذا لا أصدقه، وقد رأيتُه بعينى.

– إن عندى الكثير من الأسباب تجعلنى لا أصدق ما حدث، وسأخبرك بها فى حينها.

قال «صفوان»:

– ما رأيك أن نذهب سويًّا إلى السيد «خير الدين» البحار الخبير، وصديقى الحميم، لنسأله عن بعض المعلومات التى قد تفيدنا.

قال «شريف»:

– تفيدنا فى ماذا ؟

قال «صفوان»:

– فى البحث عن الكنز طبعًا.

قال «شريف»:

– وماذا لو ثبت خطؤك ؟

قال «صفوان»:

– عندئذٍ فقط سأصدق أننى كنتُ أحلم.

* * *

٢ - القبطان الخبير

وفى الصباح كان الصديقان يجلسان مع السيد « خير الدين » على سطح أحد القوارب التى كانت تبدو قديمة الطراز.

قال « صفوان » :

– هذا صديقى « شريف ».

– مرحبًا بك يا سيد « شريف ».

قال « شريف » مجاملا :

– إن مركبك هذا عظيم.

ردّ القبطان « خير الدين » :

– لقد اشتريته من مزاد.. إن هذا المركب كان حربيًّا، وله جسم فولاذى قوى، وقد زودته بالعديد من الأجهزة الحديثة.

– وما هو نشاطك يا سيد « خير الدين »؟

– صيد السمك بالإضافة إلى جمع « عقيدات المنجنيز » من القاع.

قال « شريف » :

– عقيدات المنجنيز ؟!

– نعم. إن عقيدات المنجنيز تشبه فى شكلها وحجمها حبات البطاطا، وتحوى مقادير من المعادن كالنحاس والنيكل والكوبلت والمنجنيز، تكفى لسد حاجات العالم عدة مئات من السنين. إن قاع المحيط لا يخلو منه شبر من مثل تلك العقيدات التى لا يعرف أحد منشأها حتى الآن.

قال « شريف » :

– وكيف تجمعها ؟

– هناك وسيلة واحدة هى المتاحة لى، وهى « الشباك الجرَّارة »، وهناك بعض السفن الحديثة تقوم بالتقاطها بواسطة أجهزة شفط قوية.

قال « شريف » محاولا تغيير مجرى الحديث :

– وهل تعمل فى البحر منذ مدة طويلة يا سيد « خير الدين » ؟

– إنها مهنة آبائى وأجدادى.

– إذن لعلك سمعتَ الكثير عن العصور الماضية التى كان ركوب البحر فيها يمثل مخاطرة كبرى.

– مخاطرة !! من أى نوع يا سيدى ؟

– من القراصنة.

ضحك السيد « خير الدين »، وقال :

– إنما كان ذلك فى أزمان بعيدة، وانتهى هذا الخطر الآن فى عصرنا الحديث.

ثم أكمل وهو ينظر بعيدًا كأنما يحكى قصة ظريفة :

– كان القراصنة من بلاد مختلفة من هولندا وفرنسا والبرتغال وإنجلترا، ومن قبلهم من آلاف السنين منذ عهد الفينيقيين كانت تلك المهنة موجودة.

ثم صمت السيد « خير الدين » لحظة، وقال :

– مثلا أيام الملكة إليزابيث الأولى كانت إنجلترا تحوى أعدادًا كبيرة من البحارة العاطلين، بينما كانت إسبانيا أغنى دول أوربا، ولها تجارة مزدهرة، فكان البحارة الإنجليز يقومون بأعمال القرصنة على السفن الإسبانية المحملة بأحمال نفيسة، وكما أخبرتكم فإن سبب نشأة تلك الظاهرة كان الفقر، وكانت حياة القراصنة تهيِّئ للمحرومين فرصة الحصول على الأموال الوفيرة – الحرام طبعًا– فضلا عن المتعة والإثارة التى كانت تتخلل مغامراتهم وحياتهم الفاسدة.

وكانت السفن التجارية المحملة بالنفائس، والمسلحة تسليحًا خفيفًا والمتباعدة عن أوطانها تُعتَبر أعظم الغنائم بالنسبة إليهم. وليس ذلك فحسب .

قال « صفوان » :

– وهل كانت لهم أهداف غير تلك السفن التابعة للدول الغنية؟

– بالطبع يا ولدى ، لقد كانوا يغيرون على القرى الساحلية، ويحملون معهم النساء والأطفال لبيعهم فى سوق الرقيق، فقلوبهم لم تكن تعرف الرحمة.

قال « شريف » :

– إننى قرأت عن هؤلاء التعساء أنهم كانوا لا يرحمون، ولا يتوقعون الرحمة من أحد. وكان همهم أن يحيوا حياة قد تكون فقيرة ولكن مرحة، فقد كانوا يعلمون جيدًا أنهم بمثابة أعداء للبشرية، ومهما تكن جنسيتهم فإنه كان يمكن تقديمهم لأية محكمة فى أى مكان فى العالم فإذا أدانتهم لقوا جزاءهم.

– نعم يا ولدى كانت تلك حياتهم، لقد أحبوا شعار الجمجمة والعظام المتقاطعة أكثر من حبهم لشعار الرحمة والسلام.

قال « صفوان » :

– إننى أتصورهم الآن وهم يهاجمون سفينة تجارية، أعتقد أنه كان مشهدًا يبعث الرعب فى قلوب بحارة أى سفينة تجارية، عندما يرون فجأة سفن القراصنة تندفع نحوهم منذرة بالخطر، وقد رفعت فوقها ساريتها الرئيسية، وعليها رسم الجمجمة والعظمتين، وأحيانًا

يتدلى من نفس السارية هيكل عظمى بأكمله، ولقد كان الإفلات منهم شيئًا بعيد المنال لبراعتهم فى التجديف.

قال السيد « خير الدين » :

– لقد رسمت مشهدًا دقيقًا فعلا لما كان يحدث يا « صفوان ».

قال « صفوان » :

– ولكن كيف أن الدول بكامل قواتها لم تتصد لهم ؟

– لقد كانوا يعاودون الظهور مرة أخرى بعد كل حملة للقضاء عليهم، وأشهر تلك الحملات حملة المحارب الكبير « بومبى »، والكابتن « وودز– روجرز » الذى أفلح فى حمل نحو ألفين من القراصنة على التسليم فى « جزر بهاما »، وهو أحد جنود البحر القلائل الذين كُتِبَ لهم النجاح ضد القراصنة.

لفت ذلك الاسم « وودز– روجرز » انتباه الصديقين فقد كان هو الاسم المنحوت بالمقبرة نفسه، وكان القرصان « وليم كيد » يتوعده.

قال « صفوان » :

– وماذا تعرف يا سيدى عن القرصان « وليم كيد »؟

– إن له قصصًا شهيرة، وهو الوحيد الذى لم يتمكن أحد من العثور على كنوزه حتى الآن.

ابتسم « صفوان »، وقال :

– أليس هو قائد سفينة « الكلب الذهبى » وحاكم جزيرة « ترتوجا »؟

قال السيد « خير الدين » :

– من أين أتيت بتلك المعلومات ؟

قال « صفوان » :

– سأخبرك فيما بعد .

– الآن حدثنا عن جزيرة « ترتوجا » أيها البحار العجوز .

– إنها قاعدة القراصنة الرئيسية فى الماضى، وظلت سنوات طويلة واحدة من أهم ملاجئ القراصنة، وفيها كانوا يتزودون بالمياه، وعمل الإصلاحات اللازمة لسفنهم، وكانت تمثل لهم قاعدة يمكنهم الاختفاء فيها لتفادى الموت أو الأسر، ولإخفاء غنائمهم .

قال « شريف » :

– وماذا عن كنوزهم الغارقة ؟

– فى الحقيقة يا ولدى لقد سمعنا عن كنوزهم الغارقة كثيرًا، وقد استطاع البعض انتشالها، وخاصة تلك التى لم تكن على أعماق كبيرة، فقد كان هَمّ الأوائل هو العثور على الكنوز المدفونة والثروات

المطمورة، وانتشالها من حطام السفن الغارقة، أو من مدن طغى عليها البحر منذ القدم.

قال «شريف»، وهو ينظر إلى «صفوان» :

– ليس الأوائل فقط يا سيد «خير الدين» هم الذين اهتموا بتلك الأمور.

قال السيد «خير الدين»، وقد فهم مغزى «شريف»، وأراد المزاح مع «صفوان» :

– وهل صار السيد «صفوان» من هواة البحث عن الكنوز الغارقة؟

قال «صفوان» على الفور :

– نعم يا سيد «خير الدين».

ضحك «خير الدين» ، وقال :

– ليس كل من وجد مقبرة فارغة فى أرضه يمكنه امتهان تلك المهنة الخطرة، إن جميع البحارة يعلمون بتلك المقبرة الفارغة التى وجدتها فى أرضك.

قال «صفوان» :

– ليست مقبرة فارغة يا صديقى.

– ماذا تقول ؟

– نعم لقد وجدنا غرفة أخرى بها جثث لقرصان مع حراسه.

قال « شريف » وقد أخرج ورقة من جيبه :

– وقد وجدنا تلك الرسالة منحوتة على الحائط.

– هل علم أحد شيئًا عن تلك الرسالة ؟

قال « صفوان » :

– لا أحد غيرى أنا و« شريف » ومساعدى « جابر »، وهو الذى اكتشفها.

قال السيد « خير الدين » :

– أرنى تلك الرسالة.

قال « صفوان » :

– وهناك شيء آخر.. لقد رأيت شبح القرصان « وليم كيد »، وذكر لى عدة أرقام حفظتها، ولكنى لم أفهم ما ترمى إليه، وقد كتبناها تحت الرسالة.

أخذ السيد « خير الدين » يتفحص الرسالة بدقة، وهو مذهول، ثم قال :

– إنها تمثل مكان كنز « وليم كيد » المفقود يا ولدى !

صاح « صفوان » :

– وكيف هذا ؟

– قال السيد « خير الدين » :

– لقد كان لى صديق – أو قل شريك– يهوى البحث عن الكنوز الغارقة، اسمه « شاهين »، وكان ماهرًا فى فك طلاسم مثل تلك الرسائل، وقد عرفت أنا أيضًا سُبل فك الطلاسم، ولكن للأسف افترقنا منذ زمن بعيد، فلم أكن أبدًا موافقًا على أسلوبه فى الحياة.

قال « صفوان » :

– دعك من « شاهين » هذا، هل تستطيع فك طلاسم تلك الرسالة؟

قال السيد « خير الدين » :

– انظر إلى حرف « ز » ، وهو الحرف الأخير من « وودز– روجرز »، إنه مكتوب بمفرده ألا يدل ذلك على شيء ؟

قال « شريف » :

– بالفعل لقد حيرنى هذا الأسلوب فى الكتابة ولم أجد تفسيرًا له.

– إنه يلفت نظرنا إلى شيء مهم.

– وما هو يا سيد « خير الدين » ؟

– اقرأ يا سيد « شريف » الحرف الأول من كل سطر، واجمعها سويًا.

أمسك « صفوان » الورقة بشغف، وهو يقول :

– ا ، ل ، ك ، ن ، ز إنها كلمة « الكنز » !!

سرت نشوة غامرة فى جسد « صفوان »، وقال :

– ولكن هذا رغم أهميته لا يدلنا على شيء.

قال السيد « خير الدين » :

– هناك شيء آخر، انظر إلى تلك الخطوط المرسومة أسفل التوقيع وعدَّها.

بدأ « صفوان » فى العد، وهو يقول :

– ٥ خط مائل ٣ خط مائل ٤ خط مائل ٢ خط مائل ٢ خط مائل ٣ خط مائل ٣ خط مائل ٧

قال « صفوان » :

– إنها الأرقام التى ذكرها لى الشبح عندما ظهر لى، ولكن ماذا

تعنى تلك الأرقام ؟!

قال السيد « خير الدين » :

– إنها الموقع يا صديقى، ونقرؤه هكذا نحن البحارة من اليسار : الموقع ٧٣° درجة ٣٢ دقيقة

٢٤° درجة ٣٥ دقيقة

قال « صفوان » :

– مذهل يا سيد « خير الدين »، هل تعرف هذا المكان ؟

– بالطبع أعرفه جيداً، وأظن أنه يقع فى أعمق مناطق المحيط .

قال « صفوان » :

– ماذا تقصد بهذا ؟!

– أقصد أنه قد يكون فى مكان من المستحيل الوصول إليه .

قال « صفوان » :

– ألا يمكننا المحاولة ؟

رد السيد « خير الدين » :

– هل تجيدون الغطس ؟

أجاب الصديقان فى صوت واحد :

– نعم.

– إذن سوف نحتاج إلى بعض الأجهزة أولا لتحديد مكان الحطام بالضبط، حتى نتمكن من استخراجه ، ولكن !

قال « شريف » :

– أفهم ما تعنيه يا سيد « خير الدين »، اطمئن فلسنا لصوص الكنوز الغارقة.

قال السيد « خير الدين » :

– ولكن يجب أن تعلموا أن الأمر ليس بتلك البساطة التى قد تتصورونها، ... إن هناك علمًا هو علم « الآثار تحت الماء »، يستعين رجاله بأعقد الأجهزة التى تستطيع التصوير فى أعماق كبيرة، وقد عملت معهم مدة عندما كانوا يستأجرون سفينتى تلك.

قال « صفوان » :

– هذا من حسن حظنا، ولكن ما نوعية تلك الأجهزة التى سنحتاج إليها ؟

– أجهزة تصوير، وأجهزة قياس شدة المغناطيسية، لتحرى وجود القطع المصنوعة من الحديد، وكذلك أجهزة السونار التى تعمل بالموجات فوق الصوتية لمسح القاع ورسم خرائط له، وأجهزة إضاءة الأعماق وغيرها.

قال « صفوان » :

– كنت أظن أن الأمر لا يحتاج سوى غطاس ماهر فحسب، ولكن يبدو أنه شديد التعقيد .

قال القبطان « خير الدين » :

– لكن هناك أمرًا آخر قد يجعلكما أكثر تفاؤلا .

– وما هو يا صديقى ؟

– إن تلك التعقيدات هى التى منعت غيرنا حتى الآن من الحصول على هذا الكنز، ولا تنسوا أن كثيرًا من السفن الغارقة قد سبقنا إليها القناصون، وعبثت بها أيديهم أملا فى العثور على ما تحمله من كنوز عدا القليل جدًّا منها الذى لم تنله أيديهم، وتلك الأجهزة المعقدة هى التى تعطينا التميز والتفوق عليهم، علاوة على أننا نملك شيئًا آخر مهمًّا جدًّا .

قال « صفوان » :

– وما هو يا سيد « خير الدين » ؟

– إننا نملك الموقع بالضبط، فتلك الإحداثيات بمثابة وصف دقيق للمكان .

قال « شريف » :

– ومتى يمكننا أن نبدأ يا سيد « خير الدين » ؟

– بمجرد استئجار ما نحتاج إليه من معدات .

صمت السيد « خير الدين »، ثم قال :

– واعلموا يا أولادى أنه لولا ثقتى الكبيرة فيكما، وحرصى على أن يظل ذلك الأمر سرًّا، ما دفعتُ بكما للغوص فى ظلمات المحيط .

قال « صفوان » :

– اطمئن يا سيدى إن الله معنا .

وانصرف السيد « خير الدين »، ليكلف بحارته – الذين كانوا جميعًا من كبار السن– بما يريد من التزود بالوقود، والتفتيش الدقيق على سلامة المحركات، بينما ذهب هو لإحضار ما سيحتاج إليه من أجهزة ومعدات للغطس .

وبعد يومين أبحرت السفينة فى المساء، وكان الجو شديد البرودة، وسرت فى جسد الصديقين رعشة خفيفة، مصدرها خليط من برودة الجو، ورهبة البحر، وشعور الغربة الذى يشعر به من فارق اليابسة متوغلا فى المجهول .

عرض السيد « خير الدين » على الصديقين النزول إلى قمرته لتناول قدحًا من الشاى الساخن، وليتحدث إليهما حديث الرجل الخبير إلى أبنائه، فقال :

– أودُّ أن أتحدث إليكما عن بعض الأشياء التى لابد أن يتذكرها كل غواص فى بداية رحلته إلى الأعماق البعيدة.

قال « شريف » وهو ينفث الهواء بين يديه :

– لا بأس يا سيد « خير الدين »، فإن العمل الناجح هو الذى يسبقه إعداد جيد، ومعرفة بتلك التجربة التى نحن مقدمون عليها، وكما يقول الحكماء: « إن المعرفة هى المصدر الحقيقى للقوة ».

ابتسم السيد « خير الدين »، وقال :

– بالطبع أنتما تعلمان أن قاع المحيط يتكون من هضاب ووهاد وسلاسل جبال، تعقبها هاويات وخنادق، وبها أماكن صخرية وأخرى موحلة، والكثير من فوهات البراكين جميعًا تؤلف مشهدًا طبيعيًّا مقلوبًا.

قال « صفوان » :

– مقلوبًا !!

– أجل ، وكأنك وضعت مرآة على سطح الماء فانعكس ما على اليابسة داخلها مقلوبًا. كما إننى يجب أن أنبهكما إلى المشاكل التى تواجه الغواص تحت سطح الماء، مثل التنفس، والضغط ، والضوء، والحرارة.

أخذ السيد « خير الدين » رشفة من كوب الشاى الذى كان يمسكه بكلتا يديه. ثم قال :

– أما عن مشكلة التنفس فهى معروفة، وهناك معلومة طريفة فى هذا الشأن، وهى أن الأنابيب التى يحملها الغواصون فوق ظهورهم ليست مملوءة بالأكسچين كما يعتقد البعض، إذ إن الأكسچين يكون سامًّا فى الأعماق الكبيرة، ولكنها تكون مملوءة بالهواء بكل عناصره.

قال « صفوان » – وقد أعجبته تلك المعلومة – :

– يبدو أن الحديث معك سيكون شائقًا يا صديقى.

وأكمل السيد « خير الدين » حديثه قائلا :

– أما الضوء والحرارة فإنهما يقلان كلما زاد العمق؛ لحجب أشعة الشمس وعدم قدرتها على النفاذ من خلال الطبقات المتتالية من المياه، حتى يسود ظلام دامس وبرد قارس.

أما الضغط فهذا ما أريد أن أحدثكما عنه بالتفصيل، لأن ما تبحثون عنه سيكون من العمق بحيث إنكما ستحتاجون إلى المعلومات التى سأذكرها لكما.

قال « شريف » :

– كلنا آذان مصغية يا سيد « خير الدين » .

– أول آثار الضغط أنه يضغط على صدر الإنسان فيجد الإنسان صعوبة فى التنفس، وفى الأعماق قد يسبب سحقًا للجسم.

قال « صفوان » :

– إلى هذا الحد ؟!

– أجل، ألا تعلم مثلا أنه عند عمق عشرة آلاف متر يبلغ الضغط حوالى ثمانية أطنان على البوصة المربعة.

شهق « صفوان » وقال :

– ثمانية أطنان على كل بوصة من جسم الإنسان ! إنها كفيلة بتحطيمه حقًّا.

أكمل السيد « خير الدين » :

– ولهذا السبب ظلت أغوار البحار والمحيطات سرًّا غامضًا أمدًا بعيدًا؛ وذلك بسبب عدم قدرة الإنسان على الغوص لتلك المسافات البعيدة، وعدم توافر معدات الغطس كذلك.

قال « صفوان » :

– وهل هناك مشاكل أخرى للضغط تحت سطح الماء ؟

– بالطبع ما زال هناك أثر خطير للضغط على جسم الإنسان، حتى لو استطاع تجنب السحق.

– وما هو؟

– إنه مرض « انخفاض الضغط »، وهو ظاهرة تركيز النيتروچين فى الدم؛ بسبب تنفس الهواء فى ضغوط أعلى من الضغوط الطبيعية فى الأعماق، وعند العودة إلى أعماق أقل يقل الضغط، فيتحول النيتروچين إلى صورة أقل كثافة، ثم إلى فقاعات غازية داخل الشعيرات الدموية، مما يسبب آلامًا شديدة، هذا إذا لم تتوقف الدورة الدموية بالكامل.

– وما هى سبل معالجة هذا الأمر ؟

– السبيل الأمثل هو العودة ببطء إلى السطح كى تتاح الفرصة لزفر فقاعات النيتروچين ببطء خلال الرئتين، والسبيل الآخر هو لبس بدلات خاصة مزودة بأجهزة تكييف للضغط.

قال « شريف » :

– وما هو العمق الذى يبدأ عنده هذا الأثر الضار ؟

– إنه لا يحدث إلا بعد عمق ١٥٠م، وهذا العمق ستضطرون للغوص أبعد منه، ولقد أعددتُ لكما العدة لتلافى هذا الخطر.

وفتح السيد « خير الدين » أحد الصناديق، وقال :

– ها هى .

قال « شريف » :

– إنها بدلة غوص.

قال « صفوان » :

– أرجو أن تشرح لنا كيف تستعمل تلك البدلة يا سيد « خير الدين ».

– إنها بدلة غوص من الخشب والحديد من الطراز المدرع، ولها مفاصل لينة، وتزن حوالى ٥٠٠ كيلوجرام، أما فى الماء فلا يتعدى وزنها ٥٧ كيلو جرامًا، وهى تتحمل ضغوطًا كبيرة، والضغط بها مماثل للضغط الجوى العادى، وتصلح للعمل لأعماق تصل إلى ٣٠٠ متر.

بالطبع أنتما تعلمان أن استئجار غواصة حديثة ليس سهلا، بالإضافة إلى أنه باهظ التكاليف، ويخرجنا عن نطاق السرية، هذا فضلا عن أننا لسنا متأكدين من وجود هذا الكنز فى مكانه الآن.

قال « شريف » :

– نحن نفهم بالطبع ما تقصده يا سيد « خير الدين »، وسوف نكون فى منتهى الحذر بإذن الله.

قال « صفوان » :

– ولكن ألا يمكنك تقدير عمق المنطقة التى سنبحث فيها ؟

– يمكن، ولكن بعد أن نصل إليها.. وأعتقد أنها عميقة جدًّا.

– ما كنتُ أظن وجود مثل تلك الأعماق الهائلة، سبحان من حمل الفُلْك فوقها، وسيَّرها.

قال السيد « خير الدين » :

– إن فى المحيط الهادى أخدودًا يُسمَّى أخدود « مارياناس »، تم الغوص فيه إلى عمق يزيد على ١١٠٣٣ م (وهو أعمق من ارتفاع جبال إفرست التى تبلغ ٨٨٤٨).

قال « شريف » مستأذنًا :

– سوف نتوجه الآن إلى قمرتنا لننال قسطًا من الراحة حتى طلوع الفجر، فغدًا سيكون يومًا مملوءًا بالعمل.. نستودعك الله يا سيد « خير الدين ».

– فى أمان الله يا أبطال.

أما على سطح السفينة، فكان هناك شبح رجل يتسلل بهدوء عائدًا إلى مخبئه، عندما أحس بالسيد « خير الدين » صاعدًا إلى أعلى.

توجه السيد « خير الدين » إلى غرفة القيادة، وظل بها حتى الفجر، وعندما وصلت السفينة إلى المكان المحدد أمر بتشغيل أجهزة « السونار » لمسح القاع.

قال الملاح المختص :

– يوجد جسم معدنى – ولكن على عمق كبير – تحتنا ياسيدى .

قال السيد « خير الدين » :

– ربما كان هو حطام السفينة الغارقة التى نبحث عنها .. حدد مكانها بالضبط، أريد تصويره قطعة قطعة، ثم قدم لى صورة تفصيلية لجسم المركب الغارق بالكامل .

قال الملاح :

– سوف أرسم له صورة صوتية بواسطة جهاز « السونار » ياسيدى .

وتم إطلاق النبضات الصوتية من خلال جهاز « السونار »، وأخذت النبضات تنعكس على الأجزاء التى تصطدم بها من الحطام حتى تمكّن من رسم صورة للحطام على هيئة ظلال صوتية قاتمة على الشريط المتصل بالآلة .

قال السيد « خير الدين » عندما شاهد الصورة :

– هذه الصورة كافية، فهى توضح أجزاء المركب الغارق بدقة .

وبعد عدة ساعات من الراحة تم إيقاظ الصديقين اللذين صليا

الفجر، ثم تم إعدادهما للغوص بعد إمدادهما بالمعلومات الكاملة عن الموقع، والهدف الغارق.

قال لهما السيد « خير الدين » :

– كونا حذرَيْن؛ فالسفينة الغارقة على حافة هاوية سحيقة، وفقكما الله.

وتم إنزال الصديقين إلى الماء، وكانا متصلَيْن بواسطة حبال من الصلب المجدول بالسفينة، كما كان كل منهما يستمد الهواء من خرطوم متصل بآلة لضخ الهواء.

وفى أيديهما كشافات ضوئية، وعلى وسط كل واحد نطاق به ألواح، وأوراق خاصة مصنوعة من اللدائن، وكذلك أقلام مصنوعة من الجرافيت الذى لا يتأثر بالماء، وذلك للكتابة وتبادل الكلمات.

وقد حمل « صفوان » على كتفه بندقية مجهَّزة برمح تحسُّبًا لأى مفاجأة، بينما حمل « شريف » بلطة.

* * *

٣ - المهمة الخطيرة

اتجه « صفوان » و« شريف » إلى القاع، وبعد قليل لاحظا أسماك القرش تحوم حولهما.

توجس الصديقان خيفة من أن تهاجمهما تلك الأسماك العملاقة الشرسة.

قال « شريف » فى نفسه :

– نحن الآن داخل مملكة البحار التى يحكمها قانون « البقاء للأقوى ».

جهز « صفوان » بندقيته.. وهمت الأسماك بمهاجمة الصديقين، وقامت سمكة كبيرة بقضم السلك المعدنى الذى يربط « صفوان » بالسفينة، ولكنها لم تستطع، فهاجت ودارت دورة واسعة ثم عادت وأخذت طريقها إلى رأس « شريف » المصفح.

وأثناء ذلك كانت هناك أحداث أخرى تجرى على سطح السفينة فقد كان القبطان « خير الدين » ومعاونوه موثوقى الأيدى، ويقف أمامهم رجل يحمل فى يده مدفعًا سريع الطلقات.

قال الرجل :

– الآن يا « خير الدين » أعطنى مفتاح صندوق المتفجرات فسوف نحتاج إليها بعد قليل.

قال « خير الدين » :

– وفيم ستحتاج إليها يا « شاهين » ؟

– عندما يعلّق صديقاك الكنز فى سلك البالون، ويظهر على السطح عندئذٍ سوف أدمرهما، وأدمرك أنت وقاربك هذا.

– أما زلتَ فى غيك القديم يا « شاهين » ؟ تعقَّل.

– منذ زمن بعيد وأنت تدعونى إلى التعقُّل، منذ أن كنا شريكين، وكنتُ أدعوك إلى الاشتراك معى فى البحث عن الكنوز الغارقة، وكنتَ مصرًّا دائمًا على الرفض، والآن تذهب بمفردك للحصول على أكبر الكنوز.

– صدقنى يا « شاهين »، إن هذا الكنز لا يخصُّنى، أنا مازلت فى عملى القديم أجمع « عقيدات المنجنيز ».

– هل تريدنى أن أصدق أنك الآن فى خدمة إنسانية، وأنك لن تحصل على نصيبك من هذا الكنز؟

– هذه هى الحقيقة .. لن أحصل منه على أى شىء، وهذان الصديقان لن يحصلا منه على شىء.

– قل ما تريد يا « خير الدين »، لن تستطيع خداعى، والآن أعطنى مفتاح الحجرة وإلا قتلتكم واحدًا واحدًا.

قال أحد البحارة :

– لن تستطيع أن تفعل شيئًا لقد أرسلتُ إشارة استغاثة ، وستصل قوات الساحل بعد قليل.

ثار « شاهين » وصوب مدفعه سريع الطلقات نحو البحار فأصابه، وأغرقت الدماء ملابسه، وألقى به مساعد « شاهين » من السفينة إلى البحر، وتعلق البحار بأحد الحبال وهو يقطر دمًا، فاجتذبت رائحة الدماء أسماك القرش التى كانت تهاجم الصديقين المدرعين، واندفعت نحو السطح أملا فى صيد جديد أسهل.

كان الصديقان يواصلان الهبوط بانتظام إلى القاع، وببطء حتى أصبحت الرؤية صعبة.

فقام « صفوان » و« شريف » بإضاءة المصابيح حتى لامست أرجلهم أرضًا صلبة بجوار حطام السفينة.

اقترب « صفوان » من الحطام بحذر، ولكن قدمه نزلت على شىء لين، ولم يدر إلا وهو ملقى على الأرض، وسط ذهول « شريف ».

وأحس أن يده تُسحَب وكأن شيئًا يمتصها، فلجأ « صفوان » إلى خدعة :

فأخذ يتقلب ويلف السلك حول ذلك الشيء، فقلَّت حركته، وهنا توجه « شريف » إلى بندقية السهام وأطلق سهمًا على ذلك الشيء الذى كان يبدو أعمى ويتلوى ببطء.

أصاب السهم ذلك الحيوان فى جزء قاتل من جسمه، وتحرر « صفوان ».

قال « شريف » فى نفسه :

– يبدو أنه من حيوانات الأعماق السحيقة العمياء التى تتغذى عن طريق الامتصاص، ولكنه ضخم جدًّا.

أصابت تلك المعركة القصيرة « صفوان » ببعض الإرهاق، أما « شريف » فقد توجه من فوره بعد تلك الجولة إلى أكبر جزء فى الحطام، وحاول فتح أحد أبوابه.

أمسك به « صفوان »، ومنعه وكتب على « ألواح التخاطب » :

= احذر .. الضغط الشديد لن يمكنك من فتح الأبواب، وإذا انفتح فسوف يغلق خلفك بشدة ولن تستطيع الخروج =

وأخذ « صفوان » و« شريف » يدوران حول الحطام للبحث عن مكان يمكن النفاذ منه إلى الداخل.

أشار « شريف » إلى أحد الأماكن المتآكلة بشدة؛ ففهم « صفوان »، وظل يضرب المكان بالبلطة حتى حطمه، وأحدث فيه فجوة كبيرة.

أشار إليه « شريف » بأن يحترس .

كتب له « صفوان » :

= لا تخف =

ودخل الصديقان داخل السفينة المتسعة الراقدة على أحد جوانبها .

أشار « صفوان » لزميله إلى أحد الثقوب فى جسم السفينة، ففهم « شريف » ما يريد صديقه لفت نظره إليه، وقال فى نفسه :

– إن تلك السفينة قد غرقت نتيجة إصابتها بعدة قذائف أحدثت فيها ثقوبًا أدت إلى غرقها، وها نحن فى الجزء الخلفى حيث الدفة، يبدو أنها كانت رحلة الهروب الأخير عندما ضيق « وودز – روجرز » الخناق حول القراصنة واضطرهم للفرار؛ فقرر القرصان الهرب بكنزه، ولكن سفينته غرقت ونجا هو بأعجوبة حتى لقى حتفه فى الكهف الذى على الشاطئ .

بحث الصديقان فى كل مكان، ولكنهما لم يجدا شيئًا مثيرًا للاهتمام .

وفى المخزن الموجود فى السفينة الغارقة أزاح « صفوان » قطعة خشبية كبيرة وكانت المفاجأة، هيكل عظمى يندفع إلى أعلى بعد أن أصبح عظامًا نخرة .

تراجع « صفوان » بسرعة إلى الخلف من هول المفاجأة، ووقف بجانب « شريف » الذى كان مشغولا فى البحث فى مكان آخر، ولم يلحظ ما حدث.

قال « شريف » فى نفسه :

– لابد أنه أخفى كنزه فى مكان لا يخطر على بال بحارته، وحتى يتجنب خيانتهم له بغية الاستيلاء على ذلك الكنز الذى يسيل له لعاب هؤلاء اللصوص، فقد كان نصيب القرصان الكبير خمسة أو ستة أضعاف ما يأخذه الآخرون كما تنص على ذلك وثائقهم.

أما « صفوان » فكان يتخيل بحارة تلك السفينة الغارقة، وهم مخمورون غائبون عن الوعى مفتقرون إلى النظام، يعيشون على ظهر تلك السفن كالأنعام لا يحركهم سوى شهواتهم وإدمانهم للخمر، أو ظهور إحدى السفن المحملة بالغنائم الكثيرة.

وفجأة قفزت على ذهن الصديقين فكرة واحدة، وفى آنٍ واحد، ونظر كل منهما إلى الآخر، ثم نظرا إلى أحد الأركان الذى كان كما يبدو مخصصًا للنبيذ الجيد المعبأ فى براميل خشبية خاصة.

أشار « شريف » إلى ذلك الركن، ففهم « صفوان » ما يعنيه صديقه، فقد كانت البراميل رغم طول الوقت الذى مضى عليها أسفل المياه تبدو بحالة جيدة ومتينة بعكس كل البراميل الأخرى التى تحطمت أو ثقبت.

أشار « شريف » إلى المكتوب عليها . . قرأها « صفوان » :

= نبيذ خاص بالقبطان =

حاول « صفوان » رفع أحدها، لكنه كان ثقيلا جدًّا .

كتب له « شريف » :

= لابد أنه مبطَّن من الداخل بالرصاص؛ لذلك لم يتحطم كالآخرين =

كتب « صفوان » على لوح التخاطب :

= وبداخله شيء ثقيل أيضًا =

كتب « شريف » :

= وثمين أيضًا، وإلا فلما كل هذه الاحتياطات =

أشار له « صفوان » بإبهامه إلى أعلى، أى أنه هو ما نبحث عنه .

كان هذا البرميل هو أكبرهم وأثقلهم، أما الباقون فكانوا أخف وزنًا .

أشار « شريف » إلى صديقه أن يعلق معه البرميل بعد أن أخرجاه من الفجوة فى خطاف البالون ليصعد به إلى أعلى ففعل .

وأطلق « شريف » البالون فاندفع بسرعة إلى السطح حاملا معه آخر

الكنوز الغارقة، وبعد قليل ظهر البالون على سطح الماء.

واندفع «شاهين» ومساعده الذى دسه ضمن رجال «خير الدين» – ينقل له الأخبار– بواسطة قارب صغير نحو البالون، وسحبوا ما يحمله البالون إلى القارب وفتحوه.

أخذ المساعد ينظر بذهول إلى ما يحتوى عليه البرميل من جواهر ونفائس لا تُقدَّر بمالٍ، ناهيك عن العملات الذهبية والأحجار الكريمة، وأمسك «شاهين» بأسطوانة معدنية مغلقة وقبَّلها، وقد علت على وجهه ابتسامة ماكرة، ودسها فى ملابسه.

وعاد الاثنان إلى سطح السفينة مرة أخرى.

قال «خير الدين» وهو ينظر إليهما ويداه موثقتان :

– اللهم إنى أسألك أن تنجينا بفضلك من شر هذا الكنز.

وسمع «شاهين» صوت قارب سريع يتجه إليهم فظن أنه قارب شرطة السواحل ووجه سلاحه ناحيته .. ولكن ظهر له شخص يلوح قائلا :

– إنه أنا يا سيدى، لا تطلق النار.

قام «شاهين» ومساعده بنقل الكنز إلى الزورق السريع التابع لهما، ثم عادا إلى «خير الدين».

قال له « خير الدين » :

– ماذا تريد أكثر من ذلك ؟ دعنا وشأننا يا « شاهين » .

– لا يا « خير الدين »، لم أكمل مهمتى بعد .

صمت « خير الدين » ولم يرد .

ولكن « شاهين » قال :

– لابد من التخلُّص من أى شخص سمع أو رأى هذا الكنز حتى لا يفتضح أمرى .

قال مساعده :

– هل أجذب الغوَّاصَين يا سيدى ؟

– نعم اجذبهم .

وأدار الرجل البكرة المربوط عليها السلك المتصل بالصديقين لبضع دقائق وهنا أشار إليه « شاهين » قائلا :

– الآن .

وفوجئ « خير الدين » ورجاله بالرجل يكسر كباحات (فرامل) البكرة، فإذا هى تدور بسرعة كبيرة فى اتجاه حل السلك .

وفى القاع كانت المفاجأة أكبر فقد وجد الصديقان أنفسهما

يغوصان بسرعة متجهين إلى أسفل، ولكن هذه المرة ليس إلى القاع، ولكن إلى الهاوية السحيقة تحت ثقل البدلات المصفحة التى يرتدونها، وانفلات الحبل الذى يعلقهما، وأمسك «صفوان» بيد صديقه، وظلا يهويان سويًّا إلى الهاوية.

وعلى سطح السفينة كان «خير الدين» مذهولا مما يحدث، فقال وهو يحاول فك وثاقه :

– ماذا تفعل يا «شاهين»، إنها جريمة؟

– لا تغضب يا شريكى القديم، فلم نعد فى حاجة إليهما .. ولا فى حاجة إليك أيضًا.

قال «خير الدين» فى نفسه :

– هل يمضى هذا الرجل فى جريمته أكثر من هذا ؟

قال «شاهين» لمساعده :

– والآن اضبط القنبلة الموقوتة على عشر دقائق.

– دع الأمر لى يا سيدى، سأجعلها تتفتت بمن عليها إلى قطع لا تُعدُّ ولا تُحصى.

جحظت عينا «خير الدين» ورجاله المكبلين، وهم يشاهدون الرجل يضع القنبلة الموقوتة بجوار صندوق المتفجرات.

قال « شاهين » لمساعده :

– والآن هيا بنا إلى القارب السريع.

كان قارب « شاهين » السريع ينتظرهم بجوار السفينة، وما كادا يستقلانه حتى حدث ما لم يكن فى الحسبان.

فقد سقطت الشبكة المخصصة لجمع أحجار القاع على الزورق، فأحاطت به، وكأنما أمسكت بسمكة كبيرة.

صاح « شاهين » ورفاقه :

– ما هذا؟ لو ظللنا هكذا سننفجر مع سفينة « خير الدين »، لابد من مخرج.

قال « خير الدين » من أعلى :

– « إن ربك لبالمرصاد » يا « شاهين ».

قال قائد الزورق السريع :

– سأنطلق بأقصى سرعة يا سيدى، وسوف أمزقها.

قال مساعد « شاهين » :

– وأنا سأحاول تمزيقها بالسكين، ولكن كم بقى من الوقت؟

قال « شاهين » يائسًا :

– لم يبق إلا قليل، وقد أحاطت بنا الشبكة فلا نستطيع حتى القفز إلى الماء، وحتى إذا فعلنا فأسماك القرش تنتظرنا، هذا إذا نجونا من الانفجار.

وكان الرجل ما زال يدير محرك الزورق إلى أقصى قدرة له، وكانت الشبكة فى غاية القوة.

صاح «شاهين»:

– حاول يا «خير الدين» الوصول إلى القنبلة وإبطال مفعولها وإلا قتلنا جميعًا، ولم يرد «خير الدين»، ساد الصمت بضع لحظات إلا من محرك القارب وهو يزمجر بشدة محاولاً الإفلات من تلك المصيدة، أما البكرة التى كانت تربط سلك الصديقين «صفوان» و«شريف» فقد وصلت إلى آخرها، وأوشك السلك على الإفلات نهائيًّا من السفينة، وفى تلك اللحظات التى تفصل بين الحياة والموت أظلمت السماء، وهبت رياح شديدة مصحوبة بأمطار غزيرة.

قال «شاهين»:

– إنها لعنة «كنوز القراصنة»، إنها اللعنة يا رجال.

قال أحد بحارة «خير الدين»:

– إنها النهاية يا سيدى، فلو لم تدركنا عناية الله فلا نجاة لنا، إن قوارب السواحل لن تصل إلينا فى هذا الجو العاصف، ولن نستطيع

التخلص من قيودنا قبل وقوع الانفجار.

وفى تلك اللحظة، قال «شاهين» بصوت مرتفع :

– لقد كدنا نمزق تلك الشبكة اللعينة.

وأفلتت العصبة الشريرة من براثن الموت بأعجوبة، وانطلق قاربهم مبتعداً عن سفينة «خير الدين»، وما هى إلا لحظات حتى سمع «شاهين» ومرافقوه صوت انفجار شديد أضاء المنطقة التى تركوها منذ قليل، فقال «شاهين» وهو ينظر بطرف عينه إلى رجاله :

– الآن أصبح الأمر تحت سيطرتنا من جديد، هيا إلى الميناء يارجال، لقد أصبحنا من أغنى أغنياء العالم.

* * *

٤ - نهاية الظلم

وفى اليوم التالى كان « شاهين » جالسًا فى مكتبه فى انتظار أخبار سارة، وقد وضع الهاتف بجانبه، وظل ينظر إليه فى قلق، وعندما استبد به القلق أدار قرص الهاتف، واتصل بأحد أعوانه، وبادره قائلا :

– لماذا لم تتصلوا بى حتى الآن ؟

– لا تنزعج يا سيدى، فكل شىء على ما يُرام.

– إذن لقد علموا الآن صدق ما أخبرتهم به.

– أجل.

– إذن لماذا لم يحضر أحدهم حتى الآن ؟

– فضَّلوا أن أحدثك أنا أولا فيما يطلبونه.

– وماذا يطلبون ؟

– نصف ما حصلتَ عليه.

– ولكن الاتفاق كان أن يوفروا لى الحماية مقابل الحصول على أشياء أخرى غير الكنز.

– هكذا أبلغونى يا سيدى، ولا تنس أنهم يستطيعون الحصول على أى شىء يريدونه منك.

– إذن أبلغهم بموافقتى، وأنا فى انتظارهم مساء اليوم.

وأغلق «شاهين» الخط، وهو منفعل، وراح يحدث نفسه، وهو يقول:

– كيف أعطيهم نصف الكنز؟ هذا جنون، ولكن لو تخلصت منهم سيصبح كل شىء لى وحدى، سأتخلَّص منهم كما تخلصتُ من «خير الدين» ورجاله والغواصين بضربة واحدة أمس.

وفى المساء كان اللقاء بين «شاهين» ومجموعة من الرجال.

قابلهم «شاهين» قائلا:

– مرحبًا بالأبطال.

رد عليه كبيرهم فى تحدٍّ.

– بل الأبطال الحقيقيون كانا هما الغواصين، إذ استطاعا الحصول على الكنز الذى فشل غيرهما فى الحصول عليه، أحس «شاهين» أن هذا الكلام موجه إليه هو، ولكنه كظم غيظه وقال:

– عندك حق، فلم أكن أتصور أنهم سينجحون.

قال الرجل:

– لقد تتبعنا سفينة «خير الدين» حسب الاتفاق للتأكد من صدق روايتك، وراقبنا الموقف عن كثب، وكنا نظن أن وصولهم إلى

الموقع هو أقصى ما يستطيعون الوصول إليه، ولكنهم ذهبوا إلى أبعد من هذا واستخرجوا الكنز.

قال « شاهين » :

– لا عليك الآن .. ها هو ما اتفقنا عليه، وناوله حقيبة، ففتحها الرجل، ونظر فيها، وقال وهو يضحك :

– تعلم يا سيد « شاهين » أن تلك المهمة قد كلفتنا الكثير، خاصة فيما يختص باستئجار غواصة الاستطلاع، لقد كان إيجارها باهظًا.

قال « شاهين » :

– هذا شأنكم.

– وشأنك أيضًا يا سيد « شاهين »، لقد أبلغنا أحد معاونيك اليوم أنك توافق على إعطائنا نصف الكنز، فأنت تعلم أن هذه الحقيبة لن نأخذ منها شيئًا.

– عندما تُسلِّم الحقيبة ستأخذ أجرك.

قال الرجل فى تحدٍّ :

– يكفيك نصف ما حصلت عليه يا « شاهين ».

– هل تظننى ساذجًا إلى هذا الحد ؟

– لا تنفعل هكذا يا صديقى فإنك لا تملك لنا شيئًا، بل نحن

الذين نملك ضدك أدلة إدانة كثيرة، بل ونملك حياتك أيضًا.

– لا تملكون ضدى شيئًا، فقد محوت كل أثر لخير الدين ورجاله والغواصين وكل من له صلة بهذا الأمر، ولا يوجد شاهد واحد علىّ.

وفى تلك اللحظة دخل رجل وقال :

– هذا يكفى.

وألقى الجميع أسلحتهم، ووسط ذهول «شاهين» امتلأ المكان برجال الشرطة، وقال الضابط :

– والآن ياسيد «شاهين» بعد هذا الاعتراف ثبت تورطك فى قتل رجالك ومعاونيك الذين قادهم طمعهم خلفك فهلكوا.

وفى تلك اللحظة، دخل «خير الدين» وهو يبتسم ابتسامة هادئة.

قال «شاهين» فى ذهول :

– أنت !! كيف نجوت يا «خير الدين»؟ لقد رأيت الانفجار بعينى.

قال «خير الدين» :

– لقد نجانا الله يا «شاهين».

– كيف ؟!

– هل تذكر البحار الذى أطلقت عليه النار عندما أخبرك أنه أرسل إشارة استغاثة إلى قوات السواحل؟

قال « شاهين » فى ذهول :

– نعم، وألقيته بيدى .. لا بل ألقاه مساعدى فى البحر.

– نعم مساعدك قطع يده وألقاه، وعندها تشبث بالشباك، وعندما حانت الفرصة.

– أية فرصة ؟

– عندما ذهبتَ لالتقاط ما يحمله البالون الضخم.

صمت « شاهين »، وأكمل « خير الدين ».

– عندها صعد مرة أخرى على سطح السفينة، وألقى عليكم بشبكة جمع « عقيدات المنجنيز » فعاقت حركتكم بعض الوقت، ثم أبطأ مفعول القنبلة وحل وثاقنا.

– ولكن .. ولكن !!

– تقصد الانفجار؟ لقد فجَّرنا بعض العبوات لخداعك.

وفى تلك اللحظة :

– دخل « شريف » و« صفوان » .

تراجع « شاهين » إلى الخلف، وهو يقول :

– مستحيل !! الغواصان ؟!

قال « شريف » :

– نعم نحن الغواصان اللذان أرسلت بهما إلى الأعماق، وظننتَ أنهما هالكان لا محالة .

قال قائد الغواصة :

– لقد رأيتهما يهويان فى هوة سحيقة والمصابيح فى أيديهما فتوجهت إليهما بالغواصة وأنقذتهما بعد أن أقنعنى زميلى بأنهما يمكن الاستفادة منهما فى عملياتنا القادمة .

قال « شاهين » :

– إذن لماذا تقبضون علىّ الآن؟ إن الجميع ما زالوا على قيد الحياة؟!

قال الضابط :

– وماذا تقول فى الجثث التى عثرنا عليها لمعاونك « جابر » وغيره .

قال « صفوان » :

– ما هذا؟ أقُتِلَ مساعدى « جابر »؟!

قال « شريف » :

– لا تحزن يا « صفوان » ستعرف الحقيقة بعد قليل .

قال « شاهين » وهو ينظر إلى معاونه الوحيد الذى ظل على قيد الحياة :

– وأنت، ألست منهم أنت الآخر ؟!

قال الرجل :

– أنا من رجال « خير الدين » وقد أوهمتك بالتعاون معك لحماية قبطانى ومعلمى « خير الدين »، لذلك عندما أصيب البحار حررت يده قبل أن ألقى به فى الماء، ولو كنت أريد القضاء على الغواصين « شريف » و« صفوان » لقطعت الخراطيم التى تمدهما بالهواء، ولكنى

تركت السلك الذى يربطهم بالسفينة ينطلق، وأنا أعرف أن نهايته لن تفلت من البكرة، فيظلان معلقين لحين رفعهما مرة أخرى، ولكن الله يسّر لهما عدة طرق للنجاة لا طريقًا واحدًا.

قال « شاهين » :

إذن لماذا لم تلقوا القبض علىّ منذ البداية بمجرد علمكم بخطتى؟

قال الضابط :

– كنا نريدك أن ترشدنا إلى أشياء طال بحثنا عنها، ولم نكن متأكدين حتى أمس من مكانها.

قال « شاهين » فى ذهول :

– وما هى ؟!

قال الضابط :

– قد تكون استطعت إقناع البعض بأن الكنز هو هدفك، ولكن هذا لا يمثل سوى نصف الحقيقة فقط، فقد عثر « صفوان » و« شريف » أثناء سقوطهما فى الهوة السحيقة على دليل إدانتك.

– ماذا ؟

وهنا فجر الضابط مفاجأة مذهلة.

– إن السفينة الغارقة لم تكن مركب القرصان كما حاولت إقناع الجميع بذلك.

قال السيد « خير الدين » فى ذهول :

– سفينة من إذن التى كانت تحمل تلك الكنوز ؟

– إنه مركب « شاهين » نفسه، والذى غرق منذ عشرين عامًا فى هذه المنطقة أثناء الحرب، وكان يحمل كنوزًا استطاع الحصول عليها أثناء فترة عمله الماضية، وبحثه المستمر وتنقيبه عن الكنوز الغارقة.

قال « شاهين »، وكأنما أصابته لوثة عقلية :

– إنها أموالى وكنوزى التى أبحرتُ فى سبيلها سنوات طويلة، إنها سفينتى التى غرقت، وغرقت معها أحلامى وثروتى وزوجتى وأفضل بحارتى، ولم أستطع البوح بسر كنزى لأحد، ولم أستطع كذلك الوصول إليها فى الماضى لعدم توافر الأجهزة التى تمكننى من

الوصول إلى تلك الأعماق الكبيرة.

قال « خير الدين » :

– إنها مفاجأة مذهلة، وكيف توصلتم إلى تلك المفاجأة يا سيد « شريف »؟

– وجدنا أحد أجناب السفينة فى الهوة السحيقة مكتوبًا عليه « شاهين »، كما أننى عرفتُ بسهولة أن الحطام الذى عثرنا عليه لم يكن حطام سفينة غرقت منذ ثلاثمائة عام، بل منذ عدة عشرات من السنين فقط، كما لاحظتُ تواريخ صنع بعض أجزائها محفورًا عليها؛ فعرفتُ أنها ليست مركب القرصان بل سفينة حديثة.

قال الضابط :

– ولكن هذا ليس كل شىء، فالأمر لم يكن خدعة للوصول إلى كنز، بل كان للحصول على ما هو أهم من الكنز.

قال « خير الدين » :

– وما هو ؟!

– إنها الوثائق، وأشار إلى الحقيبة.

إن فى تلك الحقيبة وثائق تحوى من المعلومات والأسرار ما يكفى للإطاحة برأس « شاهين »، ورؤوس الكثيرين.

وهنا فوجئ « شريف » نفسه، وقال :

– أية وثائق يا سيدى ؟

– إن هناك ملفًّا فى « إدارة المخابرات » لم يغلق حتى الآن وما زال ينتقل من جيل من الضباط إلى الجيل الذى يليه، ولم نصل إلى أسراره حتى أمس، جحظت عينا « شاهين »، وجلس منهارًا، وهنا أكمل الضابط :

– لقد كان هذا المدعو « شاهين » جاسوسًا للقوات المعادية أثناء الحرب، وكان يخفى وسط تلك الثروة وثائق مهمة لو وصل إليها أحد غيره لأدانته وأدانت الكثيرين ممن يحتلون مناصب مهمة الآن.

قال « شريف » :

– ولماذا لم يقبض عليه، لقد مضى على تلك الحرب الأخيرة أكثر

من عشرين عامًا؟

قال الضابط :

– لم نتوصل إلى ذلك العميل إلا منذ بضع سنوات فقط، عندما وصلت إلينا رسائل مجهولة المصدر تفضحه، وأعتقد أن السبب وراء ذلك كان هو محاولة « شاهين » ابتزاز زملائه القدامى الذين وصلوا إلى مناصب رفيعة للحصول على المال منهم، ولما كانوا يملكون ضده أدلة تدينه بينما هو لا يملك ضدهم أى دليل سوى تلك الوثائق الغارقة فى الأعماق، سعى للحصول على تلك الوثائق ومعها ثروته.. ومنذ ذلك الحين ونحن نراقبه..، ولكنه كان حذرًا جدًّا، ولا يكاد يقترب من البحر الذى كان بمثابة خزانة لسره وثروته.

قال « خير الدين » :

– إذن لقد أراد تأمين نفسه بالوثائق عندما أحس أن شركاءه قد يلجئون إلى التخلُّص منه ومن مطالبته إياهم بالمال، وتهديده المستمر لهم بفضح أمرهم.

كان « صفوان » ما يزال يضع يده على رأسه حزنًا على « جابر ».

وهنا قال السيد « خير الدين » :

– بالله عليكم كيف حدث كل هذا .. هلا رتبت لى الأحداث كما وقعت سيدى الضابط؟

نظر الضابط إلى « شريف » وكأنما يدعوه لسرد الأحداث.

قال « شريف » :

– لا شك أن « شاهين » كانت تراوده فى قرارة نفسه أحلام بعودة ثروته إليه بعد تلك الأزمة المالية الحادة التى مر بها، وكذلك عودة وثائقه التى تدين شركاءه الذين رفضوا الرضوخ إلى تهديداته، ولابد أنه شك فى أنهم سيبلغون عنه للتخلص من مطاردته لهم، ولكنه لم يكن يستطيع القيام بأى محاولة فى هذا الشأن؛ لشكه بأنه قد يكون مراقبًا، ففكر فى الاستعانة بآخرين يمكن الوثوق بمهاراتهم فى تنفيذ تلك المهمة، ووضع فى اعتباره أن يجهل هؤلاء ما هم مقدمون عليه؛ وإلا افتضح أمره، على أن يقوم بعد ذلك بالتخلص منهم، وعندما ذاع خبر اكتشاف المقبرة الفارغة، وعلم بأمر الرسالة المنحوتة داخلها كانت تلك هى فرصته الذهبية التى انتظرها وقرر الاستفادة منها، وخاصة أنه

رأى صاحب الأرض عدة مرات بالميناء، وعلم بصداقته لخير الدين – شريكه القديم– بل ووجود عقد بين «صفوان» و«خير الدين» لتوريد أسماك طازجة بواسطة قوارب الصيد التابعة لخير الدين.

إذن فقد كان من البديهى أن يلجأ صاحب الأرض حديث العهد بالمنطقة إلى «خير الدين» لطلب المشورة منه؛ لعلم الجميع بخبرته وتاريخه الطويل فى العمل فى أعالى البحار، وإلمامه بالكثير من خبايا تلك المنطقة التى لا يعلمها الكثيرون، وقد تحقق له ما أراد.. فقد كان أول من خطر ببال «صفوان» عندما تعرض لتلك الأحداث هو «خير الدين»، فقرر الذهاب إليه وأخذ مشورته، وبالفعل تمكن هذا الرجل الخبير من حل طلاسم الرسالة والتوصل إلى ما تعنيه، وهذا ما أراده «شاهين» بالضبط، وبالطبع كان «جابر» هو وسيلته فى إضافة الخطوط التى تدل على الموقع بالرسالة، فأصبحت تدل على موقع سفينة «شاهين» الغارقة، بالإضافة إلى إظهار الأمر على أنه من فعل روح القرصان؛ لكى يبقى «شاهين» يعمل من خلف الستار فى أمان.

قال «صفوان»:

– « جابر » !! « جابر »، أكان معهم ؟

– نعم يا « صفوان » . . .

وأكمل « شريف » :

– ولا أنسى أن أقول : إنه عندما اكتشف « جابر » الرسالة المنحوتة على الجدار ونقلها إلى « شاهين » قام بحل رموزها بسهولة، فالحروف الأولى من كل سطر عند تجميعها تعطى كلمة كنز، أما الخطوط فتعنى موقعه .

ولكن « شاهين » اكتشف أن هذا الموقع المقصود فى الرسالة قد انفجرت تحته إحدى الفوهات البركانية فى المحيط وكونت جزيرة بركانية منذ أكثر من مائة عام، وبذلك اختفى كنز القرصان إلى الأبد ؛ لذلك لم يعثر عليه أحد .

ولم يشأ « شاهين » أن يخرج من تلك اللعبة فارغ اليدين وعاوده الحنين إلى مركبه الغارق وكنزه الثمين، والوثائق التى خشى أن يعثر عليها أحد غيره، فقرر أن يحاول استخراج كنزه من الأعماق أخيرًا . . فأمر « جابر » بإضافة بعض الخطوط إلى الموقع المشار إليه فى الرسالة

فأصبحت بذلك تشير إلى مكان سفينته الغارقة، وظل يحلم بعودة ثروته إليه وإخفاء جريمته وظن أنه بذلك سيفلت من العقاب- ونسى أن الله تعالى يمهل الظالم ولا يتركه- وقرر التخلص منكم جميعًا بعد ذلك دون أن يكون له أى وجود فى الصورة.

وكانت مهمة «جابر» هى لفت انتباهنا إلى تلك الرسالة المزعومة، وبعد اكتشاف باقى غرف القبر والعثور على الهياكل العظمية للقرصان ومعاونيه، توجه إلى «شاهين»، وأخبره بذلك، وحيث إننى كنت أضعه تحت المراقبة، فقد علمت بمغادرته الموضع سرًّا.

وفى الليلة نفسها لجأ إلى حيلة الفيلم السينمائى الذى عرضه على الحائط فى غرفة «صفوان» (الذى كان نصف مُخدر) بينما كنت أنا قد أوهمته بعزمى المبيت فى المدينة؛ فحرك الفيلم بسرعة، فظهرت الصور بطيئة ومفزعة، وكان الممثل يولى ظهره لصفوان لأن المتحدث كان هو «جابر»، فلم يكن من الممكن التنبؤ بأسئلة «صفوان» عند إعداد الفيلم، وعندما حضرت أنا فى تلك اللحظة قام بتمثيل دور المذعور لرؤيته «شبح القرصان» حتى يبرر وجوده قرب حجرة «صفوان»، ويؤكد ما شاهده «صفوان»، ويصرف النظر عن الآلة التى

كانت ما تزال فى مكانها بعد عرض الفيلم.

وقد تأكدت شكوكى بعد حديثه عن عمله فى « جمعية تحضير الأرواح »، والمبررات التى ساقها، بينما كنت أعلم أنه كان طوال حياته يعمل فى الميناء، وهنا عرفت أنه هو الذى كان يذيع أصوات الجلبة وصليل السيوف أثناء الليل، بل ويسرق أمتعة العمال، وينشر الفزع بينهم، كل ذلك بالطبع كان بإيعاز من « شاهين » الرأس المدبر لتلك الخدعة.

أما « شاهين » فكان يعلم أن « صفوان » سيلجأ إلى صديقه « خير الدين » كما أخبرتكم فى أى أمر يتعلق بالبحر، وكان « شاهين » يثق فى خبرة شريكه القديم وأنه قادر على الوصول إلى تلك المنطقة الخطرة والعميقة من المحيط، ولكنه كان يشك فى إمكانية استخراج كنزه وكان يأمل ألا يكون قد سقط فى تلك الهاوية المعروفة لكل البحارة.

لذلك وإحكامًا للخطة فقد اضطر للاتصال بمن كان يعمل معهم وأخبرهم بسر الأوراق وأنها قد تُكْتَشَف؛ وبذلك تسوء العلاقة بين البلدين مرة أخرى ويُكْتَشَف أمر باقى رجالهم البارزين- الجواسيس

القدامى- فعاونوه بواسطة إحدى منظماتهم التى تمكنت من الحصول على «غواصة أعماق» صغيرة تستعمل فى الاستكشاف، وتتسع لشخصين فقط لتعرف مدى صدق قوله قبل الدخول فى أى محاولة لاسترداد تلك الأوراق المهمة لعلمهم أن عقله المريض قد يكون قد هيأ له أشياء لا وجود لها.

قال «صفوان» :

- ولماذا لم يتخلصوا منه فيموت معه سره؟

- لقد أقنعهم أنه يخفى تلك الأوراق فى مكان وعند شخص آخر، وسيقوم هذا الأخير بفضحهم لو تعرض لسوء.. لذلك فضلوا الحصول على الوثائق أولا ثم التخلص منه ومن سره إلى الأبد.

- هذا يبرر عدم لجوئه إليهم منذ البداية.

قال الضابط :

- ولا يسعنى هنا إلا تقديم الشكر للسيد «شريف»؛ فهو الذى وضعنا فى موضع الأحداث منذ بدايتها عندما اكتشف خدعة «جابر»، وعندما تحرى بنفسه عنه وعلمنا نحن علاقة «جابر»

ب« شاهين »، وعندما حللنا لغز الرسالة، اتفقنا مع السيد « شريف » أن يمضى فى تلك المغامرة حتى نهايتها لنحصل على ما يسعى « شاهين » إلى الحصول عليه، وهو دليل إدانته فكانت تلك الأحداث.

قال « صفوان » :

ولماذا أنقذتنا الغواصة.

قال الضابط :

– لأن أحد قائديها كان عميلا مزدوجًا وأقنع زميله بذلك.

قال « صفوان » :

– إذن لقد كانت حربًا بين جهازى مخابرات.

قال « خير الدين » :

– وماذا لو فشل « صفوان » و« شريف » فى الحصول على ما ذهبوا من أجله؟

قال الضابط :

– كنا سنرسل إحدى غواصاتنا لإحضاره ولم نلجأ لهذا منذ

البداية حتى لا يحس « شاهين » المختفى على سفينتك بتدخلنا . . كنا نعلم مدى ذكائه وحرصه، ووضعنا صوب أعيننا احتمال أن يكون الأمر كله خدعة منه ليتأكد من مراقبتنا له من عدمه، وفشلنا كان يعنى فقد الوثائق إلى الأبد .

قال « شريف » موجهًا حديثه إلى « صفوان » :

– والآن دعنا من كل هذا، لابد من أن تعمل بجد حتى تنتهى من مشروعك فى أقصى وقت ممكن.

قال الضابط :

– وهناك بشرى سارة لكما . . فبعد أن رفض السيد « شريف » مكافأته التى قررناها له كتعبير عن صداقة بلدينا؛ فقد قرر المسئولون إهداءكما قطعة أرض أخرى بجوار الأولى؛ لتتمكنا من إقامة مشروع كبير .

– وأنا أهديها لصديقى « صفوان » .

قال « صفوان » :

– لا أدرى كيف أشكرك يا صديقى.

قال « شريف » :

– لا داعى للشكر يا صديقى، هيا إلى العمل.

* * *